

عنوان البحث

**حفظ الحديث النبوي بين الصدور والسطور: دراسة تحليلية في أمن الوسائل
وفعاليتها وتكاملها**

عبد الكريم أزعنون¹، د. فدوى بنكيران²

¹ طالب باحث في سلك الدكتوراه بجامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب.

البريد الإلكتروني: abdelkarimazaanoun@gmail.com

² أستاذة السنة وعلومها بجامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب.

البريد الإلكتروني: fa.sadek@yahoo.fr

HNSJ, 2025, 6(12); <https://doi.org/10.53796/hnsj612/20>

المعرف العلمي العربي للأبحاث: <https://arsri.org/10000/612/20>

تاريخ النشر: 2025/12/01م

تاريخ القبول: 2025/11/18م

تاريخ الاستقبال: 2025/11/10م

المستخلص

يعالج هذا البحث إشكالية حفظ السنة النبوية، متجاوزاً المقارنة التقليدية بين الحفظ في الصدور والحفظ في السطور، يهدف البحث إلى بيان كيف أن الأمان الحقيقي للسنة لم ينبع من وسيلة واحدة، بل من منهج تكاملي صارم طوره المحدثون، وباستخدام المنهج التحليلي التاريخي، يتتبع المقال مميزات ومخاطر كل وسيلة؛ فالصدور ضمنت حياة النص واتصال السند، بينما ضمنت السطور ثبات النص وحفظه من الضياع بالموت والنسيان، ويخلص البحث إلى أن الضمانة القصوى تحققت عبر آليات النقد الحديثي؛ كالإسناد، والجرح والتعديل، والمقابلة، التي ربطت الصدر بالسطر ربطاً وثيقاً؛ فجعلت كل وسيلة ضابطاً ورقبياً على الأخرى، مما أنتج نظاماً معرفياً فريداً لضمان دقة النقل.

الكلمات المفتاحية: حفظ الحديث، التدوين، الرواية الشفهية، الصدور والسطور، علم الحديث، منهج المحدثين.

RESEARCH TITLE**Preserving Prophetic Hadith Between Memorization and Documentation:
An Analytical Study of the Security, Effectiveness, and Complementarity
of the Methods****Abstract**

This research addresses the issue of preserving the Prophetic Sunnah, moving beyond the traditional comparison between memorization (ḥifẓ) and written documentation. The study aims to show that the true safeguarding of the Sunnah did not stem from a single method, but rather from a rigorous, integrated system developed by the hadith scholars. Using a historical-analytical approach, the article traces the strengths and risks of each method: memorization ensured the vitality of the text and the continuity of the chain of transmission, while written documentation guaranteed textual stability and protection from loss through death or forgetfulness. The study concludes that the highest level of safeguarding was achieved through hadith-critical mechanisms—such as isnād, al-jarḥ wa al-ta'dīl, and textual comparison—which tightly linked memorization to documentation, making each method a regulator and verifier of the other. This produced a unique epistemic system that ensured the precision of transmission.

Key Words: Preservation of Hadith, Documentation, Oral Transmission, Memorization and Writing, Hadith Science, Methodology of Hadith Scholars.

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وصحابه الطيبين الأطهار، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

تأصيل مكانة السنة كمصدر ثانٍ للتشريع وضرورة حفظها¹:

تحتل السنة النبوية الشريفة مكانة محورية في بنية التشريع الإسلامي، فهي ليست مجرد سجل تاريخي لحياة النبي محمد ﷺ، بل هي المصدر الثاني الملزم للمسلمين بعد القرآن الكريم، إن ضرورة حفظها وفهمها والعمل بها تنبع من طبيعتها الإلهية ودورها الوظيفي الذي لا غنى عنه في بيان الدين وتطبيقه، لقد أجمعت الأمة الإسلامية على حجية السنة، واستمدت هذا الإجماع من نصوص قطعية في القرآن والسنة نفسها.

فالقرآن الكريم يؤكد أن ما يصدر عن النبي ﷺ في أمور الدين ليس نابغاً عن هوى شخصي، بل هو وحي يوحى، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾²، هذا النص يؤسس للطبيعة الإلهية للسنة، ويجعلها امتداداً للوحي القرآني، وإن اختلفت في طريقة النزول والتعبد بتلاوتها، كما ربط القرآن الكريم طاعة الرسول بطاعة الله ربطاً مباشراً، فجعل طاعته من لوازم الإيمان، فقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾³، وقال أيضاً: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾⁴، هذه الأوامر المطلقة وغير المقيدة بزمان أو مكان تؤكد أن اتباع سنته واجب شرعي دائم.

علاوة على ذلك، تكمن أهمية السنة في علاقتها الوظيفية بالقرآن الكريم، فهي تأتي على ثلاثة أشكال رئيسية:

1. **مؤكدة لما جاء في القرآن:** حيث يأتي الحكم في القرآن وتؤكد السنة، فيكون له دليلان، مما يزيد الحكم قوة ورسوخاً.

2. **مبينة ومفصلة لما أجمل في القرآن:** وهو الدور الأهم للسنة، حيث يأتي الأمر في القرآن مجملاً، كالأمر بالصلاة والزكاة والحج، فتأتي السنة لتبين كفياتها وأركانها وشروطها وأوقاتها، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾⁵، وبدون هذا البيان النبوي، تظل هذه الأركان العظيمة غير قابلة للتطبيق.

3. **مستقلة بأحكام جديدة:** حيث تأتي السنة بأحكام لم يرد نصها في القرآن الكريم، مثل تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، وتحريم لبس الحرير والذهب على الرجال، وهذا التشريع المستقل هو أيضاً وحي من الله، وواجب الاتباع.

إن هذه المكانة الرفيعة للسنة جعلت من حفظها وصيانتها ضرورة دينية قصوى، فالاستغناء عنها هو في حقيقته استغناء عن جزء كبير من الدين، وطاعة الرسول هي طاعة لله، وعصيانه هو عصيان لله، ومن هنا، لم تكن عملية حفظ الحديث مجرد مسعى أكاديمي أو تاريخي، بل كانت واجباً دينياً استشعره الصحابة ومن بعدهم، فبدلوا في سبيله جهوداً فكرية وجسدية لا مثيل لها في تاريخ الأمم، لقد كان الحفاظ على السنة يعني الحفاظ على الدين نفسه.

¹ لمعرفة منزلة السنة من القرآن وعلاقتها به، ينظر: السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب ص 23 وما بعدها.

² سورة النجم، الآيتين: 3-4.

³ سورة النساء، الآية: 80.

⁴ سورة الحشر، الآية: 7.

⁵ سورة النحل، الآية: 44.

إشكالية البحث وهدفه:

انطلاقاً من هذا الواجب الديني، تبرز الإشكالية المحورية لهذا البحث: ما هي الآليات التي استعملتها الأمة الإسلامية لضمان حفظ السنة النبوية ونقلها عبر الأجيال بدقة وأمانة؟ لقد تمحورت هذه الآليات حول وسيلتين أساسيتين: الحفظ في الصدور؛ الرواية الشفهية، والحفظ في السطور؛ التدوين والكتابة، وقد أثار هذا الازدواج في وسائل الحفظ جدلاً قديماً وحديثاً حول مدى أمان كل وسيلة، وأيهما كان له الأسبقية والأفضلية.

يسعى هذا البحث إلى تجاوز النظرة الثنائية التي تفاضل بين الويلتين، ليطرح سؤالاً أعمق: كيف تفاعلت هاتان الويلتان وتكاملتا لتشكلا نظاماً فريداً وشاملاً لحفظ السنة؟ وهل كانت إحداهما بديلاً عن الأخرى، أم كانتا جناحين متكاملين لعملية حفظ واحدة؟ ستقوم هذه الدراسة بتحليل السياق الحضاري لنقل المعرفة في صدر الإسلام، ثم تفحص مميزات ومخاطر كل وسيلة على حدة، والمنهجيات الدقيقة التي طورها المحدثون للتغلب على تلك المخاطر، والهدف النهائي هو بيان أن الأمان المطلق الذي حظيت به السنة النبوية لم يكن نتاج وسيلة واحدة، بل هو ثمرة منهج تكاملي عبقرى جمع بين دقة الحفظ الشفهي وثبات النص المكتوب، في نظام معرفي صارم لم يعرف له التاريخ مثيلاً.

إن عملية حفظ الحديث لم تكن إجراءً تفاعلياً بدأ بعد ظهور المشاكل، بل كانت مكوناً استباقياً وأصيلاً في عملية النقل منذ البداية، متجذراً في المكانة الدينية للسنة، فالأوامر القرآنية والنبوية باتباع السنة لم تفرض واجباً بالطاعة فحسب، بل فرضت واجباً بمعرفة ما يجب طاعته، وهذه المعرفة تتطلب نقلاً، والنقل الموثوق يتطلب حفظاً، لذلك، فإن نقل السنة تضمن بطبيعته اهتماماً بحفظها، إن حرص الصحابة الفوري على حفظ وفهم أقوال النبي وأفعاله، كما ورد في المصادر،⁶ كان الطبقة الأولى من هذا الحفظ الاستباقي، وهذا يتناقض مع الرأي القائل بأن أساليب الحفظ الرسمية لم تنشأ إلا لاحقاً استجابة لظاهرة الوضع، فبينما أدت ظاهرة الوضع بالتأكيد إلى تسريع وإضفاء الطابع الرسمي على هذه الأساليب، فإن الدافع الأساسي للحفظ كان موجوداً منذ اليوم الأول بسبب المكانة المقدسة للسنة.⁷

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث في كونه يعالج إحدى الشبهات المركزية التي توجه للسنة النبوية، وهي شبهة الاعتماد المزعوم على الرواية الشفهية وحدها لقرون، مما يعرضها للضياع والتحريف، يأتي هذا المقال ليقدّم رداً منهجياً، ليس فقط بتأكيد مكانة السنة كمصدر ثانٍ للتشريع، بل ببيان كيف تم حفظها، وتبرز أهميته في تفكيك ثنائية الشفاهية ضد الكتابية، وإثبات أن عبقرية الحفظ عند المحدثين كانت في المنهج التكاملي الذي سبق عصره، والذي أسس لنظام نقد وتوثيق صارم، وهذا الفهم ضروري لتعزيز الثقة بموثوقية السنة النبوية على أسس علمية وتاريخية رصينة، رداً على التشكيك المعاصر.

موجز عن الدراسات السابقة في الموضوع:

حظي موضوع تدوين السنة ومسألة الشفاهية والكتابية باهتمام أكاديمي واسع، ويمكن تقسيم الدراسات السابقة إلى اتجاهين رئيسيين:

الاتجاه الأول: الدراسات النقدية والتشكيكية يبرز في هذا الاتجاه أعمال المستشرقين مثل إجنس جولديزهر (Ignaz Goldziher) في كتابه دراسات إسلامية، الذي افترض أن الحديث هو نتاج تطور اجتماعي وسياسي في القرنين الأولين، وأن التدوين كان متأخراً، وسار على هذا النهج بعض الكتاب الحداثيين مثل محمود أبو رية في كتابه أضواء على السنة

⁶ ينظر: السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب: ص 57 وما بعدها.

⁷ ينظر: السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب: ص 375 وما بعدها.

المحمدية، الذي ركز على فكرة تأخر التدوين الرسمي كدليل على عدم موثوقية النقل.

الاتجاه الثاني: الدراسات التاريخية والتوثيقية -وهي الأغلب- جاءت هذه الدراسات كرد علمي ومنهجي لإثبات تاريخية التدوين المبكر والتكامل بين الحفظ والكتابة.

المصادر المتقدمة: يُعد كتاب **تقييد العلم** للحافظ الخطيب البغدادي (463هـ) المصدر الأقدم والأهم في هذا الباب، حيث جمع النصوص والآثار المتعلقة بجذلية الكتابة والنهي عنها والإذن بها.

الدراسات الأكاديمية الحديثة -المدرسة الدفاعية-:

السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب: وهي رسالة ماجستير رائدة، أثبتت بالأدلة وجود كتابة واسعة للحديث في عصر الصحابة، وفندت شبهة تأخر التدوين.

دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه لمحمد مصطفى الأعظمي: تعتبر هذه الدراسة -وهي رسالة دكتوراه من جامعة كامبريدج- من أعمق الردود العلمية، قام الأعظمي بتتبع المخطوطات المبكرة ودراسة تاريخ الرواة ليثبت أن التدوين كان مواكباً للرواية الشفهية منذ القرن الأول، ووجه نقداً منهجياً صارماً لآراء جولدزيهر وشاخت.

كتابة السنة في عهد النبي والصحابة لرفعت فوزي عبد المطلب: وهو بحث متخصص يثبت بالأدلة الموثقة أن الكتابة لم تكن فردية فحسب، بل كانت ظاهرة معروفة في عهد النبوة والصحابة.

يتميز هذا المقال عن الدراسات السابقة بتركيزه ليس فقط على إثبات التدوين المبكر، بل على تحليل آلية التكامل نفسها، وكيف أن هذا التكامل بين الصدر والسطر كان هو الضمانة الفعلية للأمان، أكثر من أي وسيلة منفردة.

المبحث الأول: السياق الحضاري لنقل المعرفة في صدر الإسلام: من المشافهة إلى التدوين.

أولاً: خصائص الثقافة الشفهية العربية وقوة الذاكرة:

لم ينشأ الإسلام في فراغ ثقافي، بل بزغ فجره في مجتمع كانت الشفاهية هي السمة الغالبة على ثقافته ووسيلته الأساسية لنقل المعرفة، لقد تميز العرب قبل الإسلام بذاكرة فذة وقدرات استثنائية على الحفظ، صقلتها طبيعة حياتهم ومتطلباتها، ففي غياب التدوين الواسع، كانت الذاكرة هي السجل الذي تُحفظ فيه الأنساب، وتُروى فيه أيام العرب -تاريخ حروبهم ومفازهم-، وتُتناقل عبره القصائد الشعرية التي كانت بمثابة ديوان العرب وسجل مآثرهم وقيمهم، لم تكن المشافهة مجرد وسيلة، بل كانت فلسفة في المعرفة وطريقة في تشكيل الذاكرة الجمعية عبر المستودع الشفوي الحي⁸.

تميزت هذه الثقافة الشفهية بخصائص عدة أثرت بشكل مباشر في منهجية تلقي الحديث النبوي وحفظه في مراحلها الأولى:

● **العلاقة المباشرة بين المتكلم والمخاطب:** كانت المعرفة تُنقل في سياق حي وتفاعلي، حيث يكون المستمع

حاضراً أمام المتكلم، مما لا يسمح بنقل الكلمات فحسب، بل بنقل نبرة الصوت أيضاً، والإيماءات، والسياق الكامل

للخطاب، وهذا ما يفسر الأهمية القصوى التي أولاها المحدثون للسمع المباشر من الشيخ.

مثال: أخرج الإمام أحمد عن علي بن ربيعة، قال: رأيت علياً أتى بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب

قال: «بِسْمِ اللَّهِ»، فلما استوى عليها قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ، سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا

لَمُنْقَلِبُونَ»، ثم حمد الله ثلاثاً، وكبر ثلاثاً، ثم قال: «سُبْحَانَكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي». ثم

⁸ مقال: الشفاهة في بنية التراث العربي لعبد الله الرشيد.

ضحك، فقلت: مَمَّ ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل مثل ما فعلت، ثم ضحك، فقلت: مَمَّ ضحكت يا رسول الله؟ قال: «يَعْجَبُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَيَقُولُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرِي»⁹، وفي هذا المثال نرى كيف نقل علي رضي الله عنه ليس فقط الدعاء -النص-، بل حتى هيئة الضحك التي صاحبت الفعل، وهو ما لا يمكن نقله بدقة إلا بالمشاهدة والسماع المباشر.

● **استخدام الأدوات المساعدة على الحفظ:** اعتمدت الثقافة الشفهية على قوالب وصيغ متكررة، وعلى الإيقاع الموسيقي في الشعر، والسجع في النثر، لتسهيل عملية الحفظ والاسترجاع، كان الخطاب يُصاغ بطريقة تجعله سهل التذكر.

وفي الحديث جاء في **المعجم الكبير للطبراني** عن أبي أمامة رضي الله عنه «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ تَكَلَّمَ ثَلَاثًا لِكَيْ يُفْهَمَ عَنْهُ»¹⁰، وأخرج الإمام النسائي عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَسْرُدُ الْكَلَامَ كَسْرِدِكُمْ هَذَا، كَانَ كَلَامُهُ فَصْلًا بَيِّنَةً، يَحْفَظُهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ»¹¹، وأخرج الإمام مسلم عنها أنها قالت: «إِنَّمَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ الْعَادُّ لِأَخْصَاءُ»¹².

● **المكانة الاجتماعية للحافظ:** كان الحافظ الممتن سواء للنسب أو الشعر، يحظى بمكانة رفيعة في مجتمعه، فهو حامي ذاكرة القبيلة وتاريخها، هذه القيمة الاجتماعية انتقلت مع الإسلام لتصبح قيمة دينية، فأصبح حافظ القرآن والحديث في أعلى المراتب.

ويشهد لهذا المعنى والعناية به تقسيم رواة الحديث وعلمائهم إلى مراتب حسب درجة التمكن والإتقان، والعلم بالحديث ورواياته، فمن الرواة: أوثق الناس، وثقة حافظ، ومتمن، وصدوق، ...¹³ ومن العلماء: ...، الحافظ، والحجة، وأمير المؤمنين في الحديث.¹⁴

يظهر من هذا أن الإسلام عندما جاء لم يلغ هذه الملكة الثقافية الراسخة، بل استثمرها ووجهها نحو غاية أسمى، فبدلاً من حفظ أشعار الفخر والهجاء، وُجِّهت هذه القدرات الفذة لحفظ كلام الله وكلام رسوله، إن منهج التلقي في العلوم الإسلامية، وخاصة علم الحديث، هو استمرار طبيعي ومتطور لهذه الثقافة الشفهية، فالإصرار على السماع المباشر، والرحلة في طلب الحديث للقاء الرواة، والتثبت من اتصال السند، كلها جذور ضاربة في عمق هذه البيئة الثقافية التي تقدر الكلمة المسموعة وتعتبرها الأصل في نقل المعرفة.

ثانياً: الجدل حول كتابة الحديث: من النهي المؤقت إلى الإذن المنهجي.

شكلت مسألة تدوين الحديث النبوي في عهد النبي ﷺ نقطة محورية في تاريخ حفظ السنة، حيث وردت نصوص ظاهرها التعارض بين النهي والإذن، مما استدعى من العلماء جهداً لفهم سياقها والتوفيق بينها.

⁹ مسند الإمام أحمد: مسند العشرة المبشرين بالجنة: مسند الخلفاء الراشدين: مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الرقم: 753.

¹⁰ المعجم الكبير لسليمان الطبراني: 28518، ومجمع الزوائد للهيتمي: 1291.

¹¹ السنن الكبرى للإمام النسائي: 15819، والسنن الكبرى للإمام البيهقي: 322\6-323.

¹² صحيح الإمام مسلم: كتاب الزهد والرقائق: باب التثبت في الحديث، وحكم كتابة العلم، وصحيح الإمام البخاري: كتاب المناقب: باب صفة النبي ﷺ.

¹³ تقريب التهذيب لابن حجر: ص 24-25.

¹⁴ تذكرة الحفاظ للذهبي: 31-4.

مرحلة النهي المؤقت وعلته: 15

المرحلة الأولى تمثلت في النهي عن كتابة غير القرآن، وأشهر ما ورد في ذلك حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَكْتُبُوا عَنِّي شَيْئًا غَيْرَ الْقُرْآنِ فَمَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئًا غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهِ»¹⁶ لم يكن هذا النهي تحقيراً لشأن السنة أو تقليلاً من أهميتها، بل كان إجراءً وقائياً مؤقتاً له أسبابه الموضوعية والمنهجية، والتي لخصها العلماء في عدة نقاط:

1. خشية اختلاط الحديث بالقرآن الكريم: كانت هذه هي العلة الرئيسية. فالقرآن كان لا يزال يتنزل، ولم يكن قد جُمع بعد في مصحف واحد، وكان الصحابة حديثي عهد بالوحي. فجاء النهي ليضمن بقاء النص القرآني متفرداً ومتميزاً، ومنعاً لأي التباس قد يقع فيه الناس لو كُتبا معاً في صحيفة واحدة.
2. الاتكال على قوة الحفظ: أراد النبي ﷺ في البداية أن يتكل الصحابة على ملكتهم الأساسية وقوتهم التي تميزوا بها، وهي الذاكرة الحاضرة والواعية، لكي لا يتكولوا على الكتابة فتضعف ملكة الحفظ لديهم.
3. خصوصية النهي: ذهب بعض العلماء إلى أن النهي لم يكن عاماً، بل كان خاصاً بمن يخشى منه الخطأ أو عدم الدقة في الكتابة، أو بمن لا يؤمن عليه من كتابة الحديث مع القرآن في نفس الصحيفة.

مرحلة الإذن المنهجي وأدلتها: 17

مع مرور الوقت، واستقرار الدعوة، وتمكن الصحابة من التمييز الدقيق بين لغة القرآن وأسلوب الحديث، ومع زوال علة النهي، جاء الإذن الصريح بالكتابة، مما يدل على أن النهي الأول كان معللاً بعلة محددة ومؤقتة، وتعددت الأدلة على هذا الإذن، ومن أبرزها:

- الإذن الخاص لعبد الله بن عمرو بن العاص: وهو أشهر دليل على نسخ النهي أو تخصيصه، فقد كان عبد الله يكتب كل شيء يسمعه من النبي ﷺ، فنهته قریش، فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ، أشار إلى فمه الشريف وقال: «اَكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ»¹⁸، وقد أصبحت الصحيفة التي كتبها، والمعروفة بـ "الصحيفة الصادقة"، من أوائل المدونات الحديثية وأوثقها.
- الأمر بالكتابة لأبي شاه: في عام فتح مكة، وبعد أن خطب النبي ﷺ خطبته الشهيرة، قام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه، وطلب من النبي أن يكتبوا له هذه الخطبة، فقال النبي ﷺ: «اَكْتُبُوا لِأَبِي شَاهٍ»¹⁹، وهذا أمر عام وصريح بالتدوين.

¹⁵ اختلف العلماء في سبب النهي عن الكتابة على سبعة أقوال في المجمل ينظر تفصيلها في: الحديث الصحيح لعبد الكريم إسماعيل: من ص: 39 إلى ص: 42.

¹⁶ مسند الإمام أحمد: مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، الرقم: 11536، وصحيح الإمام مسلم: كتاب الزهد والرفائق: باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، ومسند الإمام الدارمي: المقدمة: باب من لم ير كتابة الحديث.

¹⁷ أحاديث الإذن بكتابة الحديث النبوي الشريف جمعها ودرسها عدد من الباحثين؛ منهم حسناء بنت بكري نجار، في بحث تحت عنوان: "كتابة الحديث النبوي في عهد النبي ﷺ بين النهي والإذن"، وناصر بن إبراهيم العبودي بنفس العنوان المتقدم، وأحمد بن معبد كُنَيْتَاتِي تحت عنوان: "كتابة الحديث في عهد النبي ﷺ وصحابته وأثرها في حفظ السنة النبوية"، وأحمد بن محمد حميد تحت عنوان: "كتابة الحديث بين النهي والإذن"، وكلها من منشورات مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

¹⁸ سنن الإمام أبي داود: كتاب العلم: باب في كتاب العلم، ومسند الإمام أحمد: مسند المكثرين من الصحابة: مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، الرقم: 6510.

¹⁹ سنن الإمام الترمذي: أبواب العلم: باب ما جاء في الرخصة فيه -كتابة العلم-، وصحيح الإمام البخاري: كتاب اللقطة: باب كيف تعرف لقطه أهل مكة، وصحيح الإمام مسلم: كتاب الحج: باب تحريم مكة وصيدها وخلها وشجرها ولقطنها، إلا لمنشد، على الدوام.

• **وجود وثائق مكتوبة في عهده ﷺ:** إلى جانب هذه الأدونات الخاصة، كان هناك تدوين عملي ومؤسسي يتم بأمر النبي ﷺ، ويشمل ذلك كتبه إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام، والمعاهدات التي أبرمها كصلح الحديبية ودستور المدينة، والوثائق الإدارية التي تحدد مقادير الزكاة والديات.

يتضح من مجموع هذه الأدلة أن مسار التدوين انتقل من مرحلة الحذر والتقيد المؤقت إلى مرحلة الإذن والتشجيع المنهجي، فالنهي الأولي، بعيداً عن كونه عائقاً، يمكن فهمه كخطوة منهجية تأسيسية، لقد ضمن هذا الحظر المؤقت أن الجيل الأول من الرواة، أي الصحابة، قد استوعبوا الحديث استيعاباً عميقاً من خلال الحفظ والمذاكرة المتبادلة، فقد أجبهم على الاعتماد على أدواتهم المعرفية الأساسية: الذاكرة، وهذا يعني أنهم كانوا يستمعون بانتباه، ويفهمون بعمق، ويكررون الحديث لبعضهم البعض لضمان الدقة، هذه العملية من الاستماع النشط، والاستيعاب، والمراجعة الجماعية،²⁰ رسخت الحديث في ذاكرتهم الحية، مع سياقه ودقائقه التي قد يغفلها مجرد التدوين، وعندما جاء الإذن بالكتابة لاحقاً، لم يكن ما يُكتب نصاً خاماً غير متحقق منه، بل كان نصاً تم تنقيحه وتثبيته وتوطيده من خلال عملية الحفظ الشفهي الجماعي الصارمة، ولهذا، فإن الصحف مثل "الصحيفة الصادقة" لعبد الله بن عمرو لم تكن مجرد إملاءات، بل كانت تجسداً مكتوباً لتقليد شفهي تم التحقق منه بدقة، مما أعطى التقليد المكتوب اللاحق أساساً متيناً وفريداً من الموثوقية.

المبحث الثاني: الحفظ في الصدور: الآلية الأولى والأصل في الرواية

أولاً: مميزات الحفظ الشفهي ودقته: السماع والمذاكرة.

كان الحفظ في الصدور هو الوسيلة الأم والأصل في تلقي السنة النبوية ونقلها في الجيل الأول، ولم يكن هذا الحفظ مجرد عملية تخزين للمعلومات، بل كان نظاماً معرفياً متكاملًا له آلياته التي تضمن الدقة والضبط، وتقوم على ركنين أساسيين: السماع المباشر، والمذاكرة المستمرة.

أصالة السماع المباشر:

كان المعيار الذهبي لنقل الحديث هو السماع، أي تلقي الحديث مباشرة من فم الشيخ، هذا المبدأ هو جوهر الثقافة الشفهية التي تقدس الكلمة المسموعة، إن نظام الإسناد بأكمله، الذي يقوم على صيغ مثل: حدثنا فلان قال سمعت فلاناً، هو شهادة تاريخية على هذه الحقيقة، فالسماع المباشر لا ينقل النص اللفظي فحسب، بل ينقل معه عناصر حيوية لا يمكن للكتابة أن تحوّلها، مثل نبرة الصوت، ومواضع التوكيد، وملامح الوجه، والسياق الظرفي الذي قيل فيه الحديث، هذه العناصر (فوق-نصية) ضرورية للفهم العميق والصحيح لمراد المتكلم، وهي ميزة فريدة لا يمكن أن يوفرها النص المكتوب المجرد.

ثقافة المذاكرة والمراجعة:

لم يكن الحفظ عملية فردية منعزلة، بل كان نشاطاً جماعياً تفاعلياً، لقد دأب الصحابة والتابعون على مذاكرة الحديث، أي مراجعته وتكراره فيما بينهم، وقد ورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: "تذاكروا الحديث، فإنكم إن لم تفعلوا ذلك اندرس العلم"²¹، كانت هذه المذاكرة بمثابة نظام مراجعة أقران مستمر ولا مركزي؛ ففي مجالسهم، كان أحدهم يروي الحديث، فيستمع الآخرون، فإن كان هناك خطأ أو نسيان، قاموا بتصويبه فوراً، أخرج الإمام أحمد عن محمد بن سوقة، قال: سمعت أبا جعفر يقول: كان عبد الله بن عمر إذا سمع من نبي الله ﷺ شيئاً، أو شهد معه مشهداً، لم يُقَصِّرْ دونه أو يَعُدَّهُ، قال:

²⁰ قال أنس بن مالك رضي الله عنه: "إِنَّمَا كَانُوا إِذَا صَلُّوا الْغَدَاةَ قَعَدُوا جُلُوعًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَعَلَّمُونَ الْفَرَائِضَ وَالسُّنَنَ"، ينظر: مسند أبي يعلى الموصلي:

29١6، ومجمع الزوائد للهيتمي: 132١.

²¹ المصنف لابن أبي شيبة: 285١5، وجامع بيان العلم لابن عبد البر: 422١1.

فبينما هو جالس وعبيد بن عمير يقص على أهل مكة، إذ قال عبيد بن عمير: «مَثَلُ الْمُتَأَفِّقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ بَيْنَ الْعَنَمَيْنِ، إِنْ أَقْبَلَتْ إِلَى هَذِهِ الْعَنَمِ نَطَّحَتْهَا، وَإِنْ أَقْبَلَتْ إِلَى هَذِهِ نَطَّحَتْهَا»، فقال عبد الله بن عمر: "ليس هكذا"، فغضب عبيد بن عمير، وفي المجلس عبد الله بن صفوان، فقال: "يا أبا عبد الرحمن، كيف قال رحمك الله؟" فقال: قال: «مَثَلُ الْمُتَأَفِّقِ مَثَلُ الشَّاةِ بَيْنَ الرَّبِيعَيْنِ، إِنْ أَقْبَلَتْ إِلَى ذَا الرَّبِيعِ نَطَّحَتْهَا، وَإِنْ أَقْبَلَتْ إِلَى ذَا الرَّبِيعِ نَطَّحَتْهَا»، فقال له: "رحمك الله هما واحد"، قال: "كذا سمعت".²²

هذه المذاكرة الجماعية كانت تعمل كشبكة أمان ضد آفات الذاكرة الفردية، حيث كانت تقوي الحفظ، وتصحح الأوهام، وتوحد الروايات، وتضمن انتقال الحديث بأعلى درجات الدقة الممكنة، لقد خلقت هذه الثقافة رابطاً شخصياً وعميقاً بالمعرفة، وضمنت فهماً يتجاوز مجرد التلاوة، وأسست لسلسلة نقل حية وديناميكية.

ثانياً: مخاطر الاعتماد على الذاكرة ومنهجية التغلب عليها.

على الرغم من مميزات الحفظ الشفهي، إلا أنه لا يخلو من مخاطر كامنة في الطبيعة البشرية للذاكرة، لقد أدرك المحدثون الأوائل هذه المخاطر بوعي نقدي حاد، وطوروا لمواجهةها منهجية علمية صارمة لم يسبق لها مثيل، وهي التي عُرفت لاحقاً بعلوم الحديث.

المخاطر الكامنة:

1. الخطأ غير العمدى: ويشمل النسيان، والوهم؛ وهو أن يروي الحافظ الشيء على غير وجهه عن غير قصد،²³ وهذه آفات طبيعية للذاكرة البشرية.

2. الوضع (الكذب المتعمد): وهو الخطر الأكبر، ويتمثل في اختلاق أحاديث ونسبتها كذباً إلى النبي ﷺ، وقد تقامت هذه الظاهرة بعد الفتنة الكبرى ومقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث عمدت الفرق السياسية والمذهبية إلى وضع الأحاديث لدعم مواقفها.²⁴

المنهجية العلمية لمواجهة المخاطر:

كانت منظومة علوم الحديث هي الرد العلمي المنهجي على هذه التحديات، فبدلاً من رفض الرواية الشفهية بالكلية، قام المحدثون ببناء نظام لفترة وتدقيق بالغ الصرامة:

- علم الإسناد: كان الإسناد هو الابتكار المنهجي الأعظم في تاريخ الرواية، فبعد أن كان الخبر يُروى مرسلًا، أصبح المحدثون يطالبون كل من يروي حديثاً بأن يسمي سلسلة الرجال الذين نقلوه، وقد عبّر عن هذا التحول المنهجي الإمام محمد بن سيرين بقولته الشهيرة: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم"²⁵، لقد حول الإسناد الخبر من قول مجهول المصدر إلى دعوى علمية قابلة للتحقيق والتوثيق.
- علم الرجال والجرح والتعديل: لكي يكون للإسناد قيمة، كان لا بد من معرفة حال كل رجل في السلسلة، ومن هنا نشأ علم الرجال، وهو مشروع ضخم لجمع السير الذاتية لكل رواة الحديث، وتفرع عنه علم الجرح والتعديل،

²² مسند الإمام أحمد: مسند الكثيرين من الصحابة: مسند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، الرقم: 5546.

²³ ينظر: معجم المصطلحات الحديثية للغوري: ص 833-834.

²⁴ ينظر: التبصير في الدين لظاهر الأسفراييني ص 20-21، وعمدة القاري ليدر الدين العيني: 149\2-150، والموضوعات لعبد الرحمن بن الجوزي 18\1 وما بعده.

²⁵ مقدمة صحيح الإمام مسلم: 141.

وهو منهج نقدي لتقييم كل راوٍ من ناحيتين: **العدالة**؛ وهي استقامته الدينية والأخلاقية، و**الضبط**؛ وهو دقة حفظه وإتقانه لما يروي،²⁶ فكانوا لا يقبلون رواية الكذاب، أو المتهم بالكذب، أو الفاسق، أو حتى المستور الذي لا تُعرف عدالته، كما كانوا يردون رواية من يكثر خطؤه ووهمه، ولو كان رجلاً صالحاً في دينه.

إن نظام الإسناد كان أكثر من مجرد قائمة أسماء؛ لقد كان بمثابة بصمة فكرية تجعل كل حديث قابلاً للتتبع والتحقق بشكل فريد، لقد حول الخبر الشفهي المجهول إلى نقطة بيانات يمكن تدقيقها علمياً، فالقول الشفهي بدون مصدر لا يمكن تتبعه أو التحقق منه، ولكن من خلال إرفاق سلسلة دقيقة من الأسماء (حدثنا فلان عن فلان الذي سمع من فلان...)، قدم الإسناد مساراً محدداً لنقل كل خبر، وكان هذا المسار فريداً؛ فالنص نفسه -المتن- الذي يُنقل عبر سلسلة مختلفة من الرواة كان يُعتبر حديثاً مختلفاً لأغراض التحقق، وباستخدام أدوات علم الرجال، كان بإمكان العلماء فحص هذه البصمة، فيسألون: هل كان الراوي (أ) معروفاً بالصدق؟ هل كانت ذاكرته موثوقة؟ هل التقى فعلاً بالراوي (ب)؟ هل كان (ب) تلميذاً موثقاً للراوي (ج)؟ وهكذا، وفر الإسناد البنية البيانية اللازمة لعمل الجهاز النقدي لعلم الجرح والتعديل، محولاً الفوضى المحتملة للنقل الشفهي إلى نظام مرتب وقابل للتليل.

المبحث الثالث: الحفظ في السطور: تقييد العلم وضمان بقاءه.

أولاً: التدوين الرسمي وأثره في ضبط النص الحديثي

مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية وتفرق الصحابة والعلماء في الأمصار، ومع تزايد خطر الوضع في الحديث، برزت الحاجة إلى وسيلة حفظ أكثر ثباتاً واستقراراً من الذاكرة البشرية، فكان التدوين هو الحل الذي لجأت إليه الأمة لتقييد العلم وضمان بقاءه.

مشروع عمر بن عبد العزيز للتدوين الرسمي:

تُعد خلافة عمر بن عبد العزيز (101هـ) منعطفاً تاريخياً في مسيرة حفظ السنة، فإدراكاً منه لخطر "ذهاب العلم بذهاب العلماء"²⁷، وخوفاً من ضياع السنة بموت حفاظها، أصدر أمراً رسمياً إلى ولاته وعلمائه في الأمصار، وعلى رأسهم الإمام محمد بن شهاب الزهري، بجمع السنة النبوية وتدوينها بشكل منهجي وشامل، قال الزهري: "أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن، فكتبناها دفترًا دفترًا، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا"²⁸، كان هذا المشروع هو أول عملية تدوين رسمية ترعاها الدولة، وقد أعطى دفعة هائلة لحركة الكتابة والتصنيف.

مزايا التدوين وأثره:

1. **الثبات والدقة النصية**: وفرت الكتابة ثباتاً للنص الحديثي لم يكن ممكناً في الرواية الشفهية وحدها، لقد قيدت العلم وحفظت ألفاظه من التغيير الطفيف الذي قد يطرأ مع النقل بالمعنى، وقد أدرك كبار الحفاظ أنفسهم أهمية الكتاب كعون للذاكرة وسياج لها، فقد قال الإمام ابن المبارك (181هـ)، وهو من أئمة الحفظ: "لولا الكتاب ما حفظنا"، وقال الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله تعالى (110هـ): "ما قُيد العلم بمثل الكتاب، إنما نكتبه لنتعاهده"²⁹، يعني الحديث، وقال عامر الشعبي رحمه الله (103هـ): "إذا سمعتم مني شيئاً فاكتبوه، ولو في حائط"³⁰.

²⁶ ينظر: معجم المصطلحات الحديثية للغوري: ص 278، وص 485، وص 454.

²⁷ ينظر: مسند الإمام أحمد: تنمة مسند الأنصار: حديث أبي أمامة الباهلي، الرقم: 22290.

²⁸ جامع بيان العلم لابن عبد البر: 331\1.

²⁹ تقييد العلم للخطيب البغدادي: ص 101.

³⁰ تقييد العلم للخطيب البغدادي: ص 99.

2. **التصنيف المنهجي**: فتح التدوين الباب أمام التصنيف المنهجي للأحاديث، مما سهل دراستها والوصول إليها، فبعد أن كانت المدونات الأولى عبارة عن صحف غير مرتبة، تطورت حركة التصنيف في القرنين الثاني والثالث الهجريين، فظهرت المصنفات والموطآت المرتبة على الأبواب الفقهية، ثم المسانيد المرتبة على أسماء الصحابة، وبلغت هذه الحركة ذروتها في الصحاح والسنن كصحيحي البخاري ومسلم، التي جمعت الأحاديث الصحيحة في أبواب مرتبة ومنظمة.³¹

ثانياً: مخاطر النقل من الكتب ومنهجية التحقق منها:

وكما أن للحفظ الشفهي مخاطره، فإن الاعتماد على الكتب المكتوبة أفرز مجموعة جديدة من التحديات التي كان على المحدثين مواجهتها بمنهجية لا تقل صرامة.

المخاطر الكامنة في النقل المكتوب:

- **التصحيف والتحريف**: وهو الخطأ الذي يقع فيه الناسخ عند نسخ الكتاب، كأن يقرأ الكلمة على غير وجهها بسبب تشابه الحروف لأن الخط العربي القديم الذي كان يفتقر غالباً إلى النقاط والتشكيل، فيغير المعنى.³²
- **السقط والإحجام**: أن يسقط الناسخ كلمة أو سطرًا من النص، أو أن يضيف إليه ما ليس منه، كشرح أو تعليق يظنه القارئ اللاحق جزءاً من المتن الأصلي.³³
- **الوجدادة**: وهي أن يجد الطالب كتاباً بخط شيخ معين، فيروي منه دون أن يكون قد سمعه من الشيخ أو قرأه عليه أو حصل على إجازة بروايته، وتعتبر الوجدادة من أضعف طرق التحمل لأنها لا تضمن صحة نسبة الكتاب إلى مؤلفه، ولا سلامة النسخة من الأخطاء، وتقطع سلسلة الاتصال المباشر التي هي عماد الرواية.³⁴

المنهجية العلمية لمواجهة المخاطر:

طور المحدثون إجراءات صارمة لضمان أن النص المكتوب يتم التحقق منه بنفس دقة النقل الشفهي، ومن أهم هذه الآليات:

- **السماع والقراءة على الشيخ**: كانت أعلى طرق التحمل هي أن يسمع الطالب الكتاب كاملاً من لفظ الشيخ، أو أن يقرأ الطالب الكتاب على الشيخ؛ -وهو ما يسمى بالعرض-، والشيخ يستمع ويصوب له أخطاءه،³⁵ وبهذا يتم توثيق النسخة المكتوبة بسماع حي متصل.
- **المقابلة**: بعد نسخ الكتاب، كان لا بد من مقابلة النسخة الجديدة على الأصل الموثوق -نسخة الشيخ-، كلمة بكلمة، للتأكد من خلوها من أخطاء النسخ، وكانوا لا يعتدون بنسخة لم تتم مقابلتها.³⁶
- **الإجازة**: وهي إذن مكتوب أو شفوي يمنحه الشيخ لتلميذه برواية كتاب معين عنه، وكانت الإجازة بمثابة شهادة

³¹ ينظر التفصيل في: تدوين السنة النبوية لمحمد بنكيران: ص 17-18.

³² معجم المصطلحات الحديثية للغوري: ص 240، وينظر أثر التحريف والتصنيف على رواية الحديث وفقهه في كتاب: أثر اختلاف الأسانيد والمتون لماهر فحل: ص 482 وما بعدها.

³³ ينظر تعريف التحريف في: معجم المصطلحات الحديثية للغوري: ص 209-210.

³⁴ ينظر: فتح المغيث للسخاوي: 243، ومعجم المصطلحات الحديثية للغوري: ص 827-828، ومنهج النقد لنور الدين عتر: ص 220-221.

³⁵ معجم المصطلحات الحديثية للغوري: ص 559.

³⁶ فتح المغيث للسخاوي: 763-79-85.

علمية توثق أن التلميذ مؤهل لنقل هذا الكتاب المحدد الذي تم التحقق من صحته.³⁷

في التقليد الحديثي القديم، لم يكن الكتاب المكتوب، في حد ذاته، هو المصدر النهائي للسلطة التوثيقية التقويمية للحديث، بل كان يُعامل كشاهد صامت يجب إحيائه وتوثيقه من خلال ناقل بشري حي ومعتمد، لقد عنى خطر التصحيف والنسخ غير الموثوقة -الوجادة- أنه لا يمكن الوثوق بكتاب مادي بمفرده؛ فنصه كان قابلاً للخطأ، وظل نظام الإسناد، المتجذر في التقليد الشفهي، هو الأهم، لم يكن النص موثقاً إلا بمقدار موثوقية سلسلة الرواة المعتمدين الذين شهدوا على محتوياته، لذلك، تم تطوير طرق السماع والقراءة والإجازة ليس فقط لنقل النص، بل لإنشاء سلسلة بشرية من الحفظ للنص، أصبح الكتاب أداة دقيقة ومستقرة بشكل محكم، لكن السلطة النهائية كانت تقع على عاتق الحافظ الذي يستطيع أن يثبت أو يصرح بسماع الكتاب ومطابقته للأصل المنقول منه، عبر صيغ الأداء المعتمدة في ذلك، وهذا هو السبب في استمرار ثقافة الرحلة في طلب العلم لقرون عديدة حتى بعد تدوين المجموعات الكبرى، كان الكتاب هو الجسد، والإسناد هو روحه.

المبحث الرابع: التكامل المنهجي بين الصدور والسطور: ذروة الدقة في علم الحديث.

إن عبقرية منهج المحدثين في حفظ السنة لا تكمن في تفضيل الحفظ الشفهي على الكتابة، أو العكس، بل في صهر الوسيلتين في نظام واحد متكامل، حيث تعمل كل وسيلة كرقيب وضابط للأخرى، مما أدى إلى إنشاء نظام معرفي يتمتع بأعلى درجات الدقة والأمان.

لتوضيح هذا التكامل، يمكن عرض تحليل مقارنة للوسيلتين والمنهج التكاملي الذي جمع بينهما:

الخاصية	الحفظ في الصدور	الحفظ في السطور	المنهج التكاملي للمحدثين
الدقة النصية	عرضة للخطأ في اللفظ والوهم، قوية في نقل المعنى.	عالية الدقة في اللفظ، لكنها عرضة للتصحيف.	استخدام الكتاب لضبط اللفظ، والسماع لتأكيد المعنى والسياق.
حفظ السياق	قوي جداً؛ النقل المباشر يحفظ النبذة والظروف.	ضعيف؛ النص المكتوب مجرد من سياق الأداء.	ربط النص المكتوب بسند السماع المباشر، مما يعيد السياق للنص.
مخاطر التحريف	النسيان، الوهم، الوضع.	التصحيف، التزوير، النقل بالوجادة دون سند.	نظام الجرح والتعديل والإسناد لكشف الكذب والوهم، والمقابلة والعرض لكشف التصحيف.
قابلية الانتشار	محدودة؛ تتطلب السفر والسماع المباشر.	عالية؛ يمكن نسخ الكتب ونشرها على نطاق واسع.	استخدام الإجازة والمناولة لنشر الكتب الموثوقة بسند متصل، مما يجمع بين الانتشار والتوثيق.

³⁷ معجم المصطلحات الحديثية للغوري: ص 57، وفتح المغيث للسخاوي: 2192، ومنهج النقد لنور الدين عتر: ص 218-219.

أولاً: المحدث الحافظ الضابط: الجمع بين ضبط الصدر وضبط الكتاب

كان المحدث المثالي في نظر نقاد الحديث هو من يجمع بين الحسنيين: قوة الحفظ ودقة الكتاب، وقد صك المحدثون مصطلحات دقيقة للتعبير عن هذا التكامل، فميزوا بين ضبط الصدر وضبط الكتاب.

● **ضبط الصدر:** هو أن يثبت الراوي ما سمعه في قلبه بحيث يستطيع استحضاره وروايته من حفظه بدقة متى شاء.³⁸

● **ضبط الكتاب:** هو أن يصون الراوي كتابه من وقت السماع فيه إلى وقت الأداء منه،³⁹ مع مقابلته على أصل شيخه الموثوق، وحفظه من أي تغيير أو إضافة.

لم يكن الاكتفاء بأحدهما كافياً للوصول إلى أعلى مراتب التوثيق، فالراوي الذي يعتمد على حفظه فقط قد يهمل، والذي يعتمد على كتابه فقط قد يقع في نسخته تصحيف أو سقط، أما من جمع بينهما، فكان حفظه حارساً لكتابه من التصحيف، وكتابه حارساً لحفظه من الوهم والنسيان، ولهذا نجد في كتب الجرح والتعديل أحكاماً دقيقة مثل: "فلان ثقة إذا حدث من كتابه، ولكنه يخطئ إذا حدث من حفظه"،⁴⁰ وهذا يدل على أنهم كانوا يفحصون كل وسيلة على حدة، ثم يحكمون على الراوي بناءً على أدائه في كليتهما.

ثانياً: آليات التحقق المزدوج: العرض والمقارنة.

كانت عملية التحقق من صحة الحديث لا تتم بمعزل، بل من خلال آليات مزدوجة تضع الحفظ والكتابة في مواجهة ومقارنة مستمرة، مما يكشف أي خلل في أحدهما.

العرض والمقابلة:

كانت آلية العرض هي قمة هذا التكامل، وهي أن يعرض الطالب رواياته على شيخه، سواء من حفظه أو من كتابه، ليقارنها الشيخ بما في حفظه أو في أصله المكتوب،⁴¹ كما كان المحدث الكبير يعرض محفوظاته هو نفسه على كتابه بين الفينة والأخرى ليتأكد من دقة حفظه، هذه العملية هي التجسيد العملي لتلاحم الصدر والسطر في بوتقة واحدة.

مقارنة الروايات:

كانت الأداة الأقوى لكشف الخطأ هي مقارنة رواية الراوي بروايات أقرانه من الثقات الذين سمعوا نفس الحديث من نفس الشيخ، وقد عبر عن هذه القاعدة الذهبية الإمام عبد الله بن المبارك بقوله: "إذا أردت أن يصح لك الحديث فاضرب بعضها ببعض"⁴²، فإذا روى الثقة حديثاً وخالف فيه من هو أوثق منه أو أكثر عدداً، حُكم على روايته بالشذوذ أو النكارة، وتُركت، حتى وإن كان الراوي نفسه ثقة في الأصل،⁴³ هذا المنهج يدل على أن الحكم لم يكن مبنياً على الثقة الفردية بالراوي، بل على التوافق الجماعي والمتقاطع بين روايات الثقات، مما يخلق شبكة أمان معرفية يصعب اختراقها.

³⁸ نزهة النظر لابن حجر: ص 80.

³⁹ فتح المغيب للسخاوي: 291.

⁴⁰ ينظر: تهذيب الكمال للمزي: 447\30، والقسم الثاني من المعجم الأوسط للطبراني: 170\1.

⁴¹ معجم المصطلحات الحديثية للغوري: ص 559.

⁴² الجامع لأخلاق الراوي للخطيب البغدادي: 295\2-296.

⁴³ منهج النقد لنور الدين عتر: ص 429-430.

اختبار الرواة:

اشتهر المحدثون باختبار الرواة للتأكد من قوة حفظهم وضبطهم، والقصة الشهيرة لامتحان أهل بغداد للإمام البخاري هي خير مثال على ذلك، فقد عمدوا إلى مائة حديث، فقلبوا أسانيدنا ومتونها، وقدموها له ليسألوه عنها، فما كان منه إلا أن رد كل متن إلى إسناده الصحيح، وكل إسناد إلى منته الصحيح، من حفظه، دون أن يخطئ في واحد منها،⁴⁴ هذا الاختبار لم يكن مجرد استعراض لقوة الذاكرة، بل كان دليلاً على أن الحافظ المتقن لا يحفظ نصوصاً متفرقة، بل يحفظ شبكة متكاملة من الأسانيد والمتون، بحيث يكون لديه قاعدة بيانات عقلية يستطيع من خلالها تمييز أي خلل أو تلاعب.

إن هذا التكامل بين الوسائل الشفهية والمكتوبة خلق نظاماً من التكرار الفكري الذي كان بطبيعته ذا قدرة على التصحيح الذاتي، فكل وسيلة كانت بمثابة ضابط وميزان للأخرى، مما جعل النظام بأكمله أكثر قوة ومتانة من أي من الوسيلتين بمفردها، فالاعتماد على الذاكرة وحدها محفوف بالمخاطر بسبب أخطاء النساخ والنسخ غير الموثوقة، أما نظام المحدثين، فقد تطلب كليهما؛ حيث كان يجب أن يتطابق الحديث المحفوظ مع النص المكتوب، فإذا خانت الذاكرة الراوي، أمكن لكتابه الموثق أن يصحح له، وإذا وقع خطأ نسخي -تصحيح- في كتابه، أمكن لذاكرته أو ذاكرة شيخه أو تلاميذه أن تكشفه وتصححه، وإذا احتوى كل من ذاكرة الراوي وكتابه على خطأ، فإن مقارنة روايته بروايات أقرانه الثقات كانت ستكشف هذا التناقض،⁴⁵ هذا النظام متعدد الطبقات من الضوابط والموازن يعني أنه لكي يمر خطأ دون أن يُكتشف، يجب أن يحدث بشكل متطابق ومستقل عبر العديد من الذاكرات البشرية والمخطوطات المكتوبة، وهو احتمال إحصائي بعيد، وهذا هو جوهر أمن هذا النظام.

خاتمة: أمن السنة النبوية نتيجة لتضافر الوسائل وفعاليتها.

في ختام هذه الدراسة التحليلية، يتضح بجلاء أن مسألة حفظ الحديث النبوي لم تكن صراعاً بين وسيلتين متنافرتين، الصدور في مقابل السطور، بل كانت منهجية معرفية متغاممة تضافرت فيها دقة الذاكرة الحية مع ثبات النص المكتوب، إن أي محاولة لتقييم أمن السنة النبوية بالتركيز على إحدى الوسيلتين دون الأخرى هي قراءة قاصرة تبسيطية، تتجاهل الطبيعة الكلية والعبرية لمنهج المحدثين.

لقد بين البحث أن الثقافة الشفهية القوية في صدر الإسلام كانت هي الأرض الخصبة التي نبتت فيها بذور الحفظ الأولى، وأن النهي المؤقت عن الكتابة لم يكن إلا خطوة منهجية تأسيسية ضمنت استيعاباً عميقاً للنصوص قبل تدوينها، وعندما جاءت الكتابة، لم تأت كبديل يلغي ما قبله، بل كشريك يعزز ويضبط. الصدر كان هو الوعاء الحي الذي يحفظ المعنى والسياق وروح النص، والسطر كان هو القيد الثابت الذي يحفظ اللفظ ويحميه من آفات الذاكرة، فلو كتبت السنة في الصدر الأول لضاعت عندما وقعت الفتن وفقدت معانيها مع الزمن، واختلف فيها المسلمون اختلف من قبلهم في كتبهم، ولو تأخر التدوين قليلاً عن الحفظ عندما احتيج إليه، لذهبت السنة واندرست بلا رجعة، لكن الله عز وجل قدر هذه الأسباب ووقتها تحقيقاً لوعده ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾⁴⁶.

إن الأمن الفريد الذي حظي به نقل السنة النبوية ينبع من هذا النظام الديناميكي، متعدد الأوجه، والقادر على التصحيح الذاتي، لقد أدت آليات مثل الإسناد، والجرح والتعديل، والمذاكرة، والمقابلة، والعرض، ومقارنة الروايات، إلى خلق شبكة من

⁴⁴ ينظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: 340\2-341.

⁴⁵ وقد ذكر الباحث أمثلة عن كل حالة في أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه التي قيد الإنجاز.

⁴⁶ سورة الحجر، الآية: 9.

الضوابط المتقاطعة، حيث كانت الذاكرة تصحح الكتاب، والكتاب يضبط الذاكرة، وروايات الثقات مجتمعة تحكم على رواية الفرد، لقد كان نظاماً لا يثق في الذاكرة المطلقة ولا في النص المطلق، بل في المنهج الذي يتحقق من كليهما باستمرار. وعليه، فإن النتيجة النهائية التي يخلص إليها هذا البحث هي أن حفظ السنة النبوية هو نتاج تضافر الوسائل وتكاملها، لقد كان الصدر هو الحافظ للروح، والسطر هو الحافظ للجسد، وأحدهما دون الآخر كان سيظل عرضة للخلل، أما باجتماعهما في ظل منهجية نقدية صارمة، فقد شكلا معاً حصناً منيعاً لحفظ المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، في إنجاز معرفي يظل فريداً ومثيراً للإعجاب في تاريخ الفكر الإنساني.

لائحة المصادر والمراجع:

- أثر اختلاف الأسانيد والمتون في اختلاف الفقهاء: ماهر ياسين فحل (دار الكتب العلمية-بيروت\1430هـ-2009م بدون طبعة)
- تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها ووارديها، المعروف بـ "تاريخ بغداد": أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (463هـ) (تح: بشار عواد معروف\ دار الغرب الإسلامي-بيروت\ 1422هـ-2002م\ ط:1)
- التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين: طاهر بن محمد الأسفراييني (471هـ) (تح: كمال يوسف الحوت\ عالم الكتب-لبنان\ 1403هـ-1983م\ ط: 1)
- تدوين السنة النبوية في القرنين الثاني والثالث للهجرة: د. محمد بنكيران، (مداخلة في ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالسنة والسيرة النبوية، في الفترة الممتدة بين: 15 و17\03\1425هـ الموافق لما بين: 4 و6\5\2004م)
- تذكرة الحفاظ: أبو عبد الله محمد الذهبي (748هـ) (وضع حواشيه: زكريا عميرات\ دار الكتب العلمية-بيروت\ 1419هـ-1998م\ ط: 1)
- تقريب التهذيب: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (852هـ) (تح: محمد عوامة\ دار الرشيد-سوريا\ 1406هـ-1986م\ ط:1)
- تقييد العلم: أبو بكر الخطيب البغدادي (463هـ) (تح: يوسف العشا\ دار إحياء السنة النبوية - بيروت\ 1949م بدون طبعة)
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال: أبو الحجاج يوسف المزي (742هـ) (تح: د بشار عواد معروف\ مؤسسة الرسالة-بيروت\ 1400-1413هـ) (1980-1992م\ ط:1)
- جامع بيان العلم وفضله: أبو عمر بن عبد البر (تح: أبي الأشبال الزهيري\ دار ابن الجوزي-السعودية\ 1414 هـ - 1994 م\ ط: 1)
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: أبو بكر أحمد الخطيب البغدادي (423هـ) (تح: محمود الطحان\ 1444هـ)\ مكتبة المعارف-الرياض\ بدون تاريخ ولا طبعة)
- الحديث الصحيح ومنهج علماء المسلمين في التصحيح: عبد الكريم إسماعيل صباح (مكتبة الرشد-الرياض\ 1419هـ-1997م\ ط: 1)

- السنة قبل التدوين: محمد عجاج الخطيب (دار الفكر-بيروت\ 1400هـ-1980م\ ط:3)
- سنن الإمام أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (275هـ) (تح: شعيب الأرنؤوط (1438هـ) ومحمد كامل قرها دار الرسالة العالمية\ 1430هـ-2009م\ ط: 1)
- سنن الإمام الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (279هـ) (تح: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة\ مكتبة مصطفى البابي الحلبي-مصر\ 1395هـ-1975م\ ط: 2)
- السنن الكبرى: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (303هـ) (تح: حسن عبد المنعم شلبي\ إش: شعيب الأرنؤوط\ مؤسسة الرسالة - بيروت\ 1421هـ - 2001م\ ط:1)
- الشفاهة في بنية التراث العربي: عبد الله الرشيد (مقال منشور على موقع المجلة بتاريخ: 27-05-2027\ تاريخ آخر زيارة: 25-10-2025\ الرابط: <https://www.majalla.com/node/325766>)
- صحيح الإمام البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (256هـ) (تح: د. مصطفى ديب البغا\ دار ابن كثير ودار اليمامة-دمشق\ 1414هـ-1993م\ ط: 5)
- صحيح الإمام مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (261هـ) (تح: محمد فؤاد عبد الباقي (1388هـ) (مطبعة عيسى البابي الحلبي-القاهرة\ 1374هـ-1955م\ بدون طبعة)
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: بدر الدين العيني (بدون محققا\ دار إحياء التراث العربي - بيروت\ بدون تاريخ ولا طبعة)
- فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي: أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي (902هـ) (تح: علي حسين علي\ مكتبة السنة-مصر\ 1424هـ-2003م\ ط: 1)
- القسم الثاني من المعجم الأوسط: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (360هـ) (تح: محمود السعدني\ رسالة ماجستير بقسم الحديث وعلومه لكلية أصول الدين بجامعة الأزهر\ إش: د أحمد محمد سالم، د أحمد محمد صبري)
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: أبو الحسن نور الدين علي الهيثمي (807هـ) (تح: حسام الدين القدسي\ مكتبة القدسي-القاهرة\ 1414هـ-1994م\ بدون طبعة)
- مسند أبي يعلى الموصلي: أحمد بن علي بن المثنى التميمي (307هـ) ومعه: رحمت الملأ الأعلى بتخريج مسند أبي يعلى (تح: سعيد بن محمد السناري\ دار الحديث - القاهرة\ 1434هـ-2013م\ ط:1)
- مسند الإمام أحمد بن حنبل: الإمام أحمد بن حنبل (241هـ) (تح: شعيب الأرنؤوط (1438هـ) وعادل مرشد وآخرون\ إش: د عبد الله بن عبد المحسن التركي\ مؤسسة الرسالة\ 1421هـ-2001م\ ط:1)
- مسند الإمام الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (255هـ) (تح: د مرزوق بن هياس الزهراني\ بدون ناشر\ 1436هـ-2015م\ ط: 1)
- المصنف: للإمام أبو بكر عبد الله بن أبي شيبه (235هـ) (تح: سعد بن ناصر دار كنوز إشبيليا-الرياض\ 1436هـ-2015م\ ط: 1)
- المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني (360هـ) (تح: حمدي بن عبد المجيد السلفي\ مكتبة ابن تيمية - القاهرة\ بدون

تاريخاً ط: 2)

معجم المصطلحات الحديثية: سيد عبد الماجد الغوري (دار ابن كثير-دمشق\ 1428هـ-2007م\ ط: 1)

منهج النقد في علوم الحديث: نور الدين عتر (دار الفكر-دمشق\ 1431هـ-2010م\ ط: 3)

الموضوعات من الأحاديث المرفوعات: عبد الرحمن بن علي الجوزي (597هـ) (تح: نور الدين بن شكري\ مكتبة أضواء السلف-الرياض\ 1418هـ-1997م\ ط: 1) 18\1 وما بعده.

نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر: ابن حجر العسقلاني (852هـ) (تح: عبد الله الرحيلي\ مكتبة الملك فهد الوطني-المدينة المنورة\ 1429هـ-2008م\ ط: 2)